الفصل الرابع

الإمبراطورية الحثية

ترجع أصول الحثيين إلى شعوب هندو أوروبية، كانت انطلقت منذ أواخر الألف الثالث ق.م من السواحل الشمالية للبحر الأسود نحو البلقان والأناضول. وقد استقرت بعض هذه القبائل ما بين 2300-2000ق.م وسط الهضبة الأناضولية شرقي نهر الهاليس (قيزيل إرمق حالياً). وقد أطلق اسم الحثيين على هذه الشعوب وهو الاسم الذي كان يطلق أصلاً على الشعوب والقبائل المحلية المقيمة في الأناضول قبل قدوم الأوروبيين، وكانوا يدعون بالحاتيين وبلادهم بلاد حاتي. ولا يعرف شيء عن لغتهم التي بقي بعض شواهد قليلة منها في اللغة الحثية التي تكلمها القادمون. وينبغي البحث عن حضارة الحاتيين في آثار عصر البرونز القديم في مواقع ألجة هريوك وكانيش وغيرهما. ويظن أن الحثيين الذين قدموا إلى الأناضول قد اكتسبوا كثيراً من خبرات السكان الأصليين في التعدين وتبنوا بعض معتقداتهم الدينية. إننا لا نعرف شيئاً كثيراً عن هذه المراحل الأولى من تاريخ الحثيين. ولكن تاريخ هذا الشعب بدأ يتضح بصورة أفضل بعد أن أخذ يحتل موقعه بين القوى الجديدة منذ القرن السابع عشر ق.م عند تأسيس المملكة الحثية القديمة وبخاصة في النصف الثاني من الألف الثاني ق.م. ويمكن تتبع بدايات الدولة القديمة من النصوص الأكادية والآشورية القديمة، ثم من الوثائق الحثية نفسها بعد الكشف عنها في العاصمة حاتوشا وبعد تفسيرها على يدي العالم اللغوي التشيكي هروزني (1971). وكان الحثيون يدعون لغتهم «ناشيلي» أي لغة نيشا (nesa)، وهي مدينة لما يتم التعرف عليها بعد. ويظن بعضهم أنها ربما كانت مدينة كانيش، وهناك احتمال بأن تكون في موقع من نيسه على نهر قيزيل إرمق.

ويستنتج من الشواهد المتوافرة أن أسرة حاكمة بدأت تتكون نحو القرن العشرين ق.م في كوسار. ومن المؤكد أن أول اسم معروف تاريخياً من ملوك هذه الأسرة هو: لا بارنا. وقد وسع ابنه حاتوشيلي مملكته إلى شمال سورية، وقاد الابن المتبنى لهذا الأخير وهو مورشيليش (مورسيل) حملة صاعقة على سورية وبلاد الرافدين وصل فيها إلى بابل نحو 1595. وبعد دخول الجيش الحثي إلى بابل في نحو ذلك العام انطلقت بداية عصر من القلاقل والاضطرابات زعزعت أركان بلاد الرافدين والشرق الأدنى القديم، وأدت إلى تغييرات جذرية فيه.

كانت الإمبراطورية الحثية التي تكونت بعد ذلك دولة إقطاعية تسودها روح كهنوتية وعسكرية، وللنبلاء فيها مكانة محترمة جداً إلى جانب الملك وأسرته الحاكمة. ورغم محاولة الملك تلبينو الحد من سيطرة هذه الطبقة باستصدار مرسوم نظم فيه وراثة العرش (نحو 1525)، فإن سلطتها بقيت مع ذلك كبيرة ومؤثرة.

وكان النبلاء هم الذين يتولون الإدارة في الولايات ويتسلمون المسؤوليات في البلاد المفتوحة كإقطاعيات حلب وكركميش. أما الملك فقد احتفظ لنفسه بقيادة الجيوش وبترؤس الاحتفالات الدينية. ومن الصعب التعرف على أحوال الطبقات الدنيا، لأن الوثائق التي عثر عليها في حاتوشا هي من طبيعة سياسية - إدارية ودينية. ومع ذلك فإن غالبية المجتمع الحثي تتكون من الفلاحين والصناع، وللتجار نشاط خارجي أيضاً كما توضح لنا نصوص أوغاريت. ولكن عدم توافر نصوص اقتصادية في المحفوظات الحثية لا يتيح لنا الفرصة الكافية للتعرف على التركيب الاقتصادي للبلاد. وإننا نتعرف على بعض جوانب النظام الاقتصادي والحياة الاقتصادية في الدولة الحثية مما نستطيع تكوينه من معلومات من حياة الطبقة الحاكمة ومن سياسة الملوك الحثيين والوثائق التي خلفوها وراءهم.

وبعد فترة مجهولة، سادت فيها اضطرابات متصلة، صعد العرش تود خاليا (تودالیا) الثاني (نحو 1460) وهو مؤسس الإمبراطورية الحثية الجديدة. وكان للإمبراطورية الحثية نشاط كبير على المسرح الدولي في المنطقة، فقد تولى الحكم فيها شو بيلو ليوما، (1385) الذي اشتهر بفعاليته وحيويته ومقدرته الفائقة في السياسة والحرب، وما إن تحرك هذا العاهل في ميدان الأحداث، حتى اختل ميزان القوى الذي كانت موازينه قد ضبطت بدقة بسلسلة من الاتفاقات والمعاهدات الدولية بين الإمبراطورية الحثية والدول المجاورة وبخاصة سورية ومصر. وقد اتجه العاهل الحثي إلى وسط سورية، واحتل قطنة (تل المشرفة) القريبة من حماة وحمص (قادش) وسيطر على معظم وادي العاصي، تاركاً وراءه خطوط الدفاع الميتانية مهلهلة لا تقوى على أي حركة. أما مصر، التي كان يحكمها أمنحوتب الثالث، فلم تستطع بدورها القيام بأي عمل لمواجهة الموقف، بينما تضعضعت مواقف حلفائها من الأمراء السوريين حيالها بصورة واضحة[1].

1- د. محمد حرب فرزات ود. عيد مرعي: دول وحضارات في الشرق العربي القديم، مرجع سابق، ص 174-175.

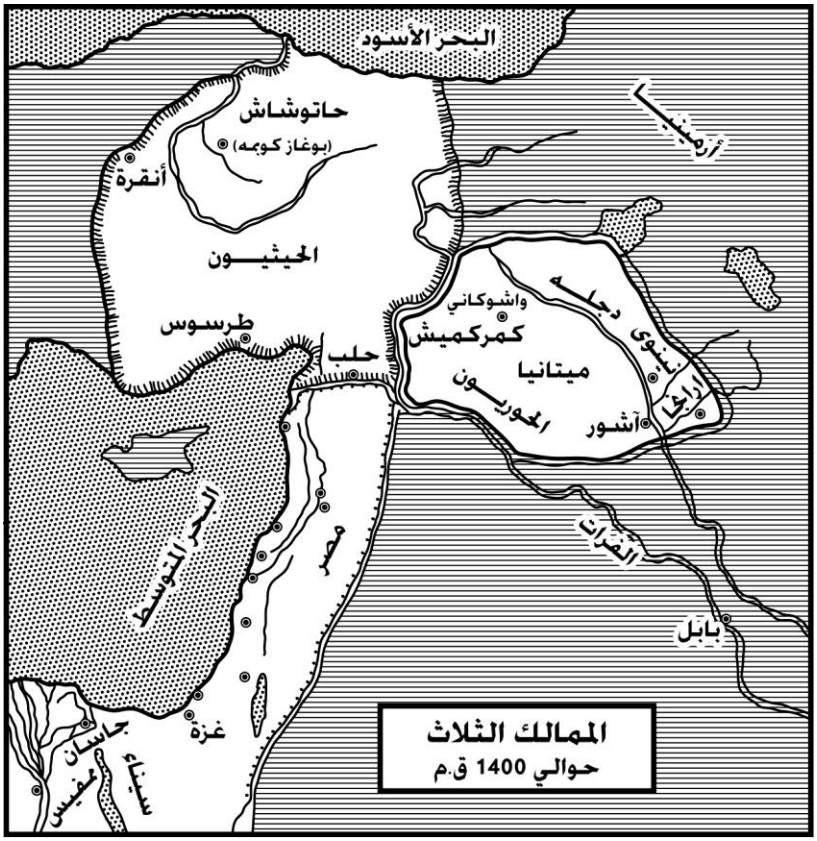

وبعد سنوات قليلة قتل ملك ميتاني توشراتا في ظروف داخلية وقعت في بلاده، فاغتنم الفرصة ملك آشور (آشور أباليط الأول 1365-1330) لكي يلغي ارتباطه بالتبعية لملك ميتاني، وليقدم على احتلال جزء من أراضي مملكة ميتاني نفسها في منطقة الجزيرة. أما النتيجة الأخرى لهذا التصرف الآشوري، فهو إقدام الإمبراطورية الحثية على ضمّ الجزء الباقي من ميتاني إليها.

وإذا كان من غير الممكن سرد تطور الأحداث بالتفصيل، فمن المفيد تسجيل أبرز التطورات التي وقعت بعد ذلك:

لقد جوبه التوسع الحثي بتحرك مصري كثيف. وكان على الإمبراطورية الحثية أن تتصدى كذلك لأعدائها الكثيرين من شعوب الأناضول أيام مورشيلي الثاني ثم مواتا للي، الذي استطاع إيقاف زحف رعمسيس الثاني الفرعون المصري عند قادش على العاصي وسط سورية. وفي هذه الظروف العصيبة التي كانت تمر بها المنطقة، كانت قوة جديدة في طريقها لاحتلال موقع بارز على مسرح الأحداث هي آشور التي تحركت في اتجاهين: نحو الفرات غرباً ونحو بابل جنوباً. وقد

أضحى هذا التحرك في هذين الاتجاهين سياسة استراتيجية للدولة الأشورية طوال تاريخها.

وفي هذه الأثناء طرأ تغيير جديد على العلاقات الدولية في المشرق القديم لم يسبق له مثيل من قبل، ذلك أنه بعد استنفدت قوى كل من المصريين والحثيين في الحروب الطاحنة المتواصلة طوال قرن، توصل الطرفان إلى قرار حاسم بعقد معاهدة عام 1267ق.م، تضمنت بنودها إنهاء القتال والتفاهم على بنود توازن دولي جديد يقوم على اقتسام النفوذ بين الجانبين بخط يمتد على الأرجح بين ميناء جبيل على المتوسط غرباً والفرات شرقاً، وتكون المناطق الواقعة شمال هذا الخط منطقة نفوذ للإمبراطورية الحثية والمنطقة الواقعة جنوبه ضمن نفوذ الفرعون المصري. ويعدُّ هذا الاتفاق الأول من نوعه في تاريخ العلاقات الدولية أيام الفرعون المصري رعمسيس الثاني (1290-1224)، والملك الحثي حاتوشيلي الثالث (1285-1260 تقريباً).

غزوات شعوب البحر:

كانت سواحل أوروبا الواقعة على البحر المتوسط تمور بحركات الشعوب التي عرفت في الوثائق المصرية باسم «شعوب البحر». إننا لا نعرف تفاصيل هذه الحركة بشكل واضح، ولكننا نعرف تحركها من خلال آثارها في المنطقة: ففي أثناء هذه التحركات انهارت طروادة، ثم الإمبراطورية الحثية التي دمرت عاصمتها حاتوشا. ثم جاء دور كركميش، وبعدها مدن الساحل السوري وخاصة أوغاريت. ولكن الموجة الأخيرة لهذه الغزوات توقفت عند الحدود المصرية، عندما نجح الفرعون رعمسيس الثالث في إقامة سد في وجه الغزاة نحو 1190ق.م[1].

الدولة الحثية والمجتمع الحثي:

قدم الحثيون، كبقية القبائل الغربية الأخرى، إلى منطقة الشرق الأدنى، نازحين من الشمال عبر المنطقة ما بين البونتوس وبحر قزوين؛ حيث يبدو أن الانشقاق الذي حدث بين اليهود الغربيين والشرقيين لا بد وأنه قد تم فعلاً قبل هذا الزمن بمدة طويلة.

كما يجب أن يكون هؤلاء قد احتكوا خلال استيطانهم لهذه البلاد حتى في بداية الألف الثانية ق.م مع الساميين الغربيين الذين استوطنوا شمال بلاد الشام وشمال بلاد ما بين النهرين، وكذلك مع الحوريين الذين دفعوا من قبلهم إلى الجنوب. ولقد قدر لهم أيضاً في ذلك الزمن الاحتكاك لأول مرة مع الحضارة واللغة البابليتين، فاقتبسوا على الأرجح خلال ذلك الكتابة المسمارية من الساميين الغربيين

1- المرجع السابق، ص 176-177.

من «كيل - تبه» حتى قبل وصولهم آسيا الصغرى. وإذا ما أردنا أن نعتبر بأن فجر بناء الإمبراطورية الحثية الكبيرة لم ينبثق على أساس وحدة تامة بل نشأ بالتدريج عن اتحاد دويلات عديدة، فإن انقسامهم آنذاك إلى قبائل مختلفة يشبه أيضاً الحالة نفسها التي كانوا عليها في الحقبة المعاصرة للمستعمرات التجارية الآشورية في الأناضول حتى عهد الملك سارجون الأول الآشوري[1].

كانت الإمبراطورية الحثية دولة إقطاعية، يأتي في القمة الملك الأكبر سيد البلاد قاطبة، ويليه في التسلسل الملوك الصغار. وكان الملك الأكبر ينتقيهم من أفراد أسرته أو أنسابها، ويعينهم على المناطق التابعة له. وقد تضاءل عدد هؤلاء الملوك الصغار في دور الإمبراطورية الحديثة، فاستبدلوا بالحكام.

الملك الأكبر:

كان نظام الملكية انتخاباً في عهد الإمبراطورية القديمة، وللملك حق تعيين خلفه. وقد حكمت البلاد سلالة واحدة في ظل هذه الإمبراطورية. وهذا لم يمنع وقوع خلافات بين الملك والأمراء والطبقة النبيلة. ولم يكن «الملك الأكبر» يحكم البلاد سيداً مطلقاً، فلا بد له من رضى مجلس النبلاء «البانكو» عنه. وعليه أن يقسم اليمين بين يدي هذا المجلس، ويأخذ على نفسه تعهداً بحسن إدارة البلاد. وكان هذا المجلس يعدُّ بمثابة محكمة عليا يحاكم فيها أعضاء الأسرة الملكية أو الطبقة النبيلة. وكان ملوك الإمبراطورية القديمة يحملون لقب «تابارنا» ولقب «بطل». وفي عهد الملك شو بيلو ليوما صار اسم «الشمس». وتدلنا رسائل تل العمارنة ورسائل الأمراء الكنعانيين على هذه التسمية المأخوذة عن مصر، لأن ابن رع هو الإله الشمس.

غير أن ملك الحثيين لا يؤله في حياته كفرعون مصر وملوك بابل، بل يصبح إلهاً بعد وفاته، ولا يقال عنه إنه «مات» بل أصبح «إلهاً»، وتقام له عبادة خاصة، وهي من نوع عبادة الأسلاف. وكان حرسه «مشيدي» يعزله عن العالم الخارجي. وله في قصره موظفون وخدم وأتباع يهيئون له ما يحتاجه.

وعندما يتولى العرش، تقام له حفلة مباركة ويسمى باسم جديد. وكما هي الحال في بلاد الشرق الأخرى، كان ملك الحثيين وسيطاً بين الله وشعبه، فعليه أن يؤمن لنفسه ولبلاده: الصحة في الأجسام، والنصر على الأعداء، والخير والبركة على الأرض. وكانت أدعية الصلوات والحفلات الدينية تنطق عن هذه الأماني والرغائب، لأن الحثيين يعتبرون السنوات العجاف والأمراض والأوبئة إنما هي غضب من الله، وعلى الملك أن يدفع عن رعاياه غائلة الجوع والفقر والمرض والحر والبرد.

1- أنطون مورتكات: تاريخ الشرق القديم، مرجع سابق، ص 216-217.

ولقد أوضحت وفرة النصوص في عهد الإمبراطورية الحديثة واجبات الملك تجاه رعاياه ككاهن أكبر، ووسيط بين الله وبين الشعب، ودافع للضر، وله وحدة أن يحتفل بالأعياد الكبرى للآلهة، تاركاً أمر العبادة اليومية إلى الكهان لينوبوا عنه في أدائها.

ففي الحفلات الدينية الكبرى، كان الملك الأكبر يرتدي رداءً خاصاً ولباس رأس خاصاً، وقد وصلنا شكل هذا اللباس، ويمسك بيده الصولجان ويترأس الحفلة بحضور الملكة وولي العهد، ويدعو الكهنة إلى إراقة الخمور وتقديم الخبز. وقد جرت العادة، قبل حلول فصل الشتاء، أن يقوم بزيارة رسمية إلى المعابد الكبرى في أنحاء البلاد[1].

وكان الملك قائداً أعلى للجيش في الحرب، لأن الحثيين أمة محاربة، وقد قامت دولتهم على الحرب ولا يمكنها البقاء والحياة إلا بالحرب، ولا يخلو عام من الحرب... وكثيراً ما تستلزم الحروب بقاء الملك زمناً طويلاً خارج بلاده. فقد بقي الملك شو بيلو ليوما عشرين عاماً في سورية بعيداً عن قصره. وكثيراً ما كانت الدسائس تحاك في البلاط أثناء غيابه... وقد تحدث أمور أخرى، كالثورات مثلاً، مما ينتج عنها خسائر وأضرار في الدوائر المدنية والدينية.

وكان الملك قاضياً أعلى، وهو الذي يسن القوانين ويترك تنفيذها إلى موظفي الدولة، وله أن ينظر في القضايا الكبرى دون غيره، كجريمة الإعدام بالموت، والدعاوى المقامة على أصحاب المناصب العليا في الدولة، والمنازعات التي تقوم بين أتباعه، وفي التظلمات التي ترفع إليه ضدهم.

الملكة:

لم يؤثر عن الحثيين أن اعتلت عرشهم امرأة، غير أنه كان في استطاعة الملكة أن تكون وصية، وأن تقوم إلى جانب زوجها بقسط رسمي في الحفلات الدينية، بل وأن تترأس هذه الحفلات. وقد لعبت بعض الملكات دوراً أساسياً هاماً، كالدور الذي لعبته بودو هيبا زوجة حاتوشيل الثالث. فقد كانت كاهنة بنت كاهن، وقد تزوجها حاتوشيل بأمر من الإلهة سموحة. وإن أكثر الوثائق التي تحمل اسم حاتوشيل كانت تحمل في الوقت نفسه اسم الملكة.

نساء الملك:

ولم تكن الملكة هي المرأة الوحيدة في حياة الملك، فقد كان له محظيات عديدات. ولكن الملكة كانت تحتل المكانة الممتازة في البلاط الملكي، ولها وحدها

1- د. نور الدين حاطوم ورفاقه: موجز تاريخ الحضارة، مرجع سابق، ص 262-263.

أن تظهر في الحفلات العامة، فهي المرأة والزوجة الحق، وتأتي بعدها زوجته من الدرجة الثانية، ويحق لأبنائها أن يرثوا العرش، إذا لم يكن للملك المتوفى وارث من زوجته الأولى. ويليها في التسلسل نساء أخريات، ليس لأولادهن حق في الملك. ولم يعرف عن ملوك الحثيين أن تعاطوا الزواج بقريباتهم بالدم كما في مصر.

ولي العهد:

واجتناباً لحدوث الفوضى والاضطرابات، كان على الملك، وهو على قيد الحياة، أن يعين ولي عهده ووارثه. ويوافق على هذا التعيين كبار رجال المملكة، ويبايعون الملك المرشح، وعندئذٍ يشارك أباه في إدارة الشؤون العامة، ويساهم في حفلات العبادة إلى جانب أبيه وأمه[1].

الملوك الصغار:

وكان الملك الأكبر يخول إدارة بعض الأراضي في داخل البلاد إلى أمير من أسرته ويمنحه لقب ملك. وهذه المملكة الصغيرة المتشكلة على هذا النحو لصالح الأمير الحثي، تبقى جزءاً متمماً لا يتجزأ من مملكة الملك الأكبر، فله فيها السيادة المدنية والدينية والزعامة العسكرية العليا، وعلى الملك الصغير أن يقسم يمين الولاء بين يدي الملك الأكبر الذي يخوله إدارتها ويعطيه الضمانات الكفيلة بسلامتها وتأمين وراثتها إلى أنسالة من بعده.

الحكام:

كان النظام الإقطاعي في ظل الإمبراطورية القديمة، يكفل للملوك الصغار دوام وضعهم. وكذا الحال في الإمبراطورية الحديثة في البلاد المفتوحة. غير أن تطوراً حدث في بلاد الحثيين الأصلية، وتم تبديل نظام الإقطاعيين بحكام يمكن عزلهم في أي وقت ويخولهم سلطات عسكرية ومدنية.

إن أهم واجبات الملك الأكبر أن يؤمن لبلاده رضى الآلهة. أما واجب الحاكم، وهو نائب الملك في إقليمه، فهو تأمين ممارسة العبادة. وتضم هذه الأخيرة العناية بالمعابد وضبط أموالها، وتسمية كهنتها والإشراف على تقديم القرابين بشكل لائق، والاحتفال بأعياد الآلهة، في الوقت المناسب.

1- المرجع السابق، ص 264-265.

وعلى الحاكم أن يؤمن رضى الآلهة واحترام الأكليروس، وأن يمارس سلطته القضائية بطريق الضابطة ومجلس الشيوخ. وله أن يحاكم أي فرد، مهما كان وضعه، وفقاً لقواعد الحق والعدل.

وكانت للحاكم اليد العليا على قصور الملك وأملاكه وهيئاتها. فله أن يتدخل للحيلولة دون أي اضطرابات أو اعتداء على أموال الملك أو نهبها، وأن يعنى بالزراعة، ويسلف المزارع البذار، ويشرف على رجال الضابطة في الأرياف، ويحمي المزروعات من الحيوانات السائمة.

المدن المقدسة:

وإلى جانب هذه الممالك الصغيرة المقامة لصالح الأمراء من أسرة الملك الأكبر، كان في بلاد الحثيين ثلاث مدن مقدسة وهي: عرينا، ونيريق، وزيبا لاندا. وكان زعيم الأكليروس في هذه المدن يمارس السلطة المدنية، بالإضافة إلى وظائفه الدينية.

الأمراء والشعب:

وتحت صغار الملوك والحكام وكبار الكهان في المدن المقدسة والأمراء، يأتي رؤساء البلاط والأقاليم، ولكل منهم وظائف خاصة. وعلى كل منهم أن يقسم يمين الولاء، أثناء توليه منصبه، بأن يعمل حسب النظم الموضوعة، وأن يكون مخلصاً للملك ولخلفائه الشرعيين من بعده، وعليهم أن يكونوا إلى جانب سيدهم في الحرب، وأن يسلحوا على نفقتهم الخاصة سائقي العربات الحربية والمشاة، على أن تعوض الغنائم ما أنفقوه من مال لهذا الغرض.

وكانت الطبقة الوسطى عند الحثيين تتألف من المحاربين والزراع والصناع وعمال الحقول. وكان المحاربون يؤلفون قوام الجيش الحثي، ويتقاضون جزاء الخدمات التي يؤدونها للملك أراضي يزرعونها لصالحهم، ويلتحق بكل محارب «تابع» يعنى بالحقول عند غياب سيده. وباستطاعة هؤلاء المحاربين أن يكونوا أمراء إقطاعيين مقابل أتاوة يؤدونها للملك.

العمال اليدويون والأرقاء:

وتحت المحاربين يأتي العمال اليدويون والمشتغلون بالحقول. وكان لهؤلاء العمال اليدويين، من بنائين وحائكين وخياطين ودباغين وخرافين وحدادين، أنظمة وتعاليم خاصة، وهم يرتبطون بالأرض مع عائلاتهم، كالعمال الزراعيين. ومثل هذا النظام كان يفرض على النبلاء ممن يتآمرون على سلامة الملك ويُردون إلى شرط العمال في الريف.

وعندما تنتهي الحرب مع الأعداء، يأتي الملك الأكبر بالأسلاب والغنائم من الرجال والقطعان والأشياء الثمينة. ثم يوزع الأسرى على المدن الحثية والمناطق قليلة السكان وعلى المعابد، ولهم أنظمة خاصة. كما يدخل قسم منهم في الجيش، وآخرون يُرسلون أرقاء في خدمة الأمراء والمحاربين.

وكان هؤلاء الأرقاء يؤلفون أدنى طبقة في المجتمع الحثي. ولم يكونوا سواسية، بل إن حال بعضهم تتعلق بالوضع الاجتماعي لسيدهم. فعبيد الإدارة والأمراء يتمتعون بامتيازات. أما الرعاة والعطارون وسقاة الماء، فمنبوذون محتقرون، لأن حالتهم هذه نتيجة لعقاب حلَّ بهم.

وكان القانون يخول هؤلاء الأرقاء حق الزواج بامرأة حرة دون أن تخسر الفوائد المترتبة على وضعها الاجتماعي. والشرط الوحيد في هذه الحالة هو أن يكون الزوج قادراً على دفع ثمن شراء المرأة. وإذا فسخ الزواج فإن توزيع الأطفال والأولاد يكون حسب القواعد الموضوعة للأحرار. أما النساء المتزوجات برعاة أو عطارين، فإنهن يفقدن حريتهن خلال مدة تتراوح بين السنتين والأربع سنوات[1].

السخرة:

لقد وضعت السخرة للقيام ببعض الأعمال كصيانة الطرق أو إصلاح المعابد. وكان رجال الدين معفين منها، وكذلك سلطات المدن المقدسة الثلاث. وللملك أن يعفي من السخرة من يشاء من الناس. وكان بعض المحاربين معفين من السخرة كالكهان. وقد حاول أصحاب الإقطاعات أن يعاملوا كهؤلاء ويعفوا من السخرة، إلا أن جهودهم كانت عبثاً.

وكان المعدنيون ملزمين بالعمل في الترسانات عندما يكون الملك في حملة من الحملات العسكرية، وذلك لإصلاح الأسلحة والعناية بها. ولا يمكنهم الانفكاك عن هذا العمل إلا لقطاف العنب.

وأخيراً، كانت بعض الأتاوات تدفع عيناً إلى الملك. وكان لها في عهد الإمبراطورية القديمة جباة يجمعونها في دور خاصة تسمى «الدور المختومة» أي في مخازن الدولة. وعلى هؤلاء الموظفين تهيئة إقامة الموكب الملكي وإعاشته أثناء الحجج السنوي إلى المعابد الكبرى.

الأسرة:

إن التشريع الحثي لا يبحث في حقوق العائلة، بل في الزواج فقط. وليس لدينا معلومات واضحة عن نظام تعدد الزوجات ووضع الأولاد والتبني وتوزيع

1- نفس المرجع، ص 266-267.

الإرث. وكان للطبقات العليا أحكام شرعية خاصة لا تطبق على رعايا الملك الأكبر جميعهم.

ومن التعابير التي كان يدل بها على علاقات الزوجية، يرى أن وضع الزوج كان متفوقاً بالنسبة إلى المرأة. وفي الواقع كان الزواج جانبياً كما في بابل وآشور، ويتلخص في أن الرجل يتخذ امرأة زوجة له، أو أن أباً يسلمه ابنته لتكون زوجة له. وفي هذه الحال تصبح مُلكاً خاصاً به. وكان الزواج يتم بين شخصين من وضع اجتماعي واحد أو بين شخصين من وضعين مختلفين. وهذا الزواج يحدث شراء أو خطفاً. ويتم زواج الشراء بين الناس الأحرار بعد اتفاق مسبق، ويحتفل بالخطبة. وفي الحفلة يقدم الخطيب هديته إلى الفتاة، فتصبح خطيبته. على أن الأهل في استطاعتهم فسخ الخطبة لتزويج ابنتهم، وربما سلمت إلى الشخص الذي خطبها أولاً.

هذا وتستطيع الزوجة أن تسكن مع زوجها، إما في داره أو في دار أبيها، وهذه هي عادة الآشوريين في العصر نفسه.

ويلزم الزواج المرأة بالأمانة الزوجية. فإذا أمسك رجل بامرأة في الجبل أو في الريف، اعتبر هذا العمل منه جرماً وأعدم، ولا جناح عليها إذا كانت الشروط، التي ألمت بها، لا تسمح بطلب النجدة أو الاستغاثة. أما إذا أمسك الرجل بها وهي في الدار اعتبر هذا العمل جرماً شائناً وأعدمت. وإذا وجد الزوج زوجته مع آخر متلبسين بالجرم وقتلهما فلا قصاص عليه... وكان الحثيون يتزوجون امرأة أخيهم المتوفى إذا لم يكن له وارث، كما كانت عادة الأشوريين والعبرانيين. ونكاد لا نعرف شيئاً عن حقوق الأب على أولاده أو عن التبني أو عن طرد الأم الأرملة أو المهجورة لابنها إذا كان فاسداً سيء السلوك[1].

قانون العقوبات:

إن الجرائم والجنح التي ترتكب ضد الأشخاص هي القتل والضرب والجروح والإجهاض والخطف (إلا إذا كان في سبيل الزواج) والاعتداء على الأخلاق، والأعمال المخالفة للطبيعة، كقتل الابن أباه مثلاً، والثورة على الملك، وأذى السحر. وتختلف العقوبة حسب ظروف المجرم وظروف الضحية، وحسب المكان الذي ارتكب فيه الفعل الإجرامي، وتكون مشددة إذا كان الجرم عن سابق تصور وتصميم، وتكون بالإعدام أو بدفع غرامة نقدية أو رقيق أو أراضٍ.

وقد حدد القانون المسؤولية الجماعية، التي تقع على عاتق الأسرة ومسؤولية القرية في حال الخطف أو الثورة على الملك، ومسؤوليتها حال ارتكاب جرم القتل من مجهول على أرضها.

1- المرجع السابق، ص 268-269.

أما الجرائم التي ترتكب ضد الملكية، كالسرقة والحريق والضرار المختلفة، فتعوض عادة بعدد من الحيوانات، وبمبلغ من المال، وبكمية من الشعير أو الصوف، أو إصلاح الضرر أو التعويض عن الشيء المتلوف بمثله. ويبدو أن قانون العقوبات الحثي، في مجموعه، أقل صرامة من القانون البابلي. وقد جرت عليه خلال العصور عدة تعديلات خففت فيه العقوبات، وأزالت الأضاحي البشرية، واستعاضت عنها بأضاحي حيوانية. أما الموظفون المدنيون وسدنة المعابد، فقد كانت لهم تشريعات خاصة مشددة، لأن أخطاءهم تعتبر كبائر، نظراً لصفة الشخص المتضرر ملكاً أو إلهاً[1].

الحكومة:

كان النظام المدني التقليدي للقطر في جوهره محلياً محدوداً، فكان لكل من دويلات المدن المتناثرة - ومجتمعات الأودية - مجلس محلي من الشيوخ. وهو يشرف عادة على الإدارة المحلية، وعلى الأخص تسوية المنازعات. وكان للمراكز الدينية الهامة فقط نظام مختلف. ونحن نعرف من رواية أسترابون عن المدينة المقدسة «كومانا» في عهد الإمبراطور الروماني تبيروس، كيف أن مثل هذه المدن كانت تعتمد اعتماداً كلياً على المعبد منذ العهود الموغلة في القدم، وكان الكاهن الأعظم في الوقت نفسه هو الحاكم المدني. وتوجد إشارات غير مباشرة إلى تلك المدن المقدسة في النصوص الحثية، ولكننا على ثقة من أن هذا النمط من النظام يرجع إلى أصل قديم جداً.

وقد احتفظ ملوك حاتوشا (بوغاز كوي) في بداية الأمر لأنفسهم بالإشراف المباشر على الأقاليم الجديدة التي استولوا عليها بالفتح، وذلك بأن عهدوا بإدارتها إلى أبنائهم أنفسهم. وقد كان أولاد «لابارناس» قد اعتادوا أن يخرجوا لإدارة المقاطعات التي خصصت لهم بعد عودتهم من الحملات السنوية. ثم نقرأ فيما بعد، عن مناصب مماثلة أنعم بها على القواعد، الذين كانوا عادة من أقرباء الملك. وتشتمل إدارة المقاطعة هذه على واجبات منها: إصلاح الطرق والمباني العامة، والمعابد، وتنصيب الكهنة، والاحتفال بالشعائر الدينية وإقامة العدالة. ويظهر أن تعيين مثل هؤلاء المديرين كان غير رسمي كما كان مؤقتاً، ولم يكن من المحتم أن يكون للوظيفة لقب خاص. وقد أصبح مثل هذا النظام غير صالح حين اتسعت رقعة الإمبراطورية، فامتدت إلى خارج حدود هضبة «كبادوليا». وحتى قبل ذلك، يمكننا أن نلاحظ بداية نظام مختلف في إقطاعيات أمراء البيت المالك، الذين أطلق عليهم في النصوص الأولى لقب «أمير» مدينة كذا مثل زالبا، هوبيسنا، أوسا، سوجزييا، ونيناسا. ولكن صعوبات سرعة الاتصال خلال الممرات الجبلية قد استلزمت تعيين حكام من نوع أكثر دواماً واستقلالاً، يرتبطون بالسلطة المالكة بإيمان الولاء

1- نفس المرجع، ص 270.

المقدسة الصريحة. وبالإضافة إلى ذلك أثبتت هذه الإمبراطورية الحثية، التي أخذت تزداد اتساعاً، أنها قادرة على اجتذاب الممالك الصغيرة الضعيفة المحيطة بها. وقد أضحت ممالك سورية على الأخص في موقف حرج بين الإمبراطوريتين الطموحتين الحثية والمصرية. ولذا سعى حكامها للاحتفاظ بعروشهم، من خلال اتباع سياسة مرنة، آيتها الانحياز إلى الدولة التي تبدو في أي وقت أنها أقوى. وقد اجتذبت كل من أمورو (مملكة الأموريين في لبنان - وكيزوواتنا في كيليكيا) إلى مدار الإمبراطورية الحثية، واعتبرتا مملكتين تابعتين إلى جانب تلك التي استولى عليها الملك الحثي فعلاً بقوة السلاح[1].

ويتوقف مركز المقاطعات التي استولى عليها بهذه الطرق على عوامل عدة. فالمراكز الرئيسية مثل حلب وكركميش وداتاسا قد ضمت إلى المملكة واحتفظ بها لأمراء البيت المالك الذين حكموا هناك أتباعاً من نوع خاص مخلص. وفي الطريق الآخر المقابل كانت توجد المحميات، وهي ممالك كانت تتمتع بمكانة كبيرة في عهد قريب جداً، وكان من الضروري استرضاؤها بإعطائها على الأقل مظهر الاستقلال.

وكان يحكم معظم الممالك التابعة ولاة من أبناء الأقاليم، ولكنهم كانوا إما لاجئين وإما زعماء أحزاب موالية للحثيين، وكانوا مخلصين للرئيس الحثي الأعلى. وكان الملك التابع هو الحاكم ذو السيادة داخل إقليمه، ولكن كان محظوراً عليه عادة أن يمدَّ الجيش الحثي بفرقة في كل وقت توجه فيه الحملات ضد إحدى الدول العظمى أو ضد دول تقع في جوار ممتلكاته. وكان عليه أن يؤدي يمين الولاء الدائم للملك وخلفائه. وفي مقابل ذلك كان الملك يضمن تولية الوارث الشرعي للعرش.

وكان إخلاص الولاة يتمثل عادة في تقديم الأتاوة سنوياً. وتمثل هذه الشروط إجمالاً مصالح السيد الأعلى، وتعكس حقيقة الأواصر التي تربط بين سلطانه وسلطان تابعه. وكان الزواج الدبلوماسي طريقة جيدة في اجتذاب التابع إلى جانب مصلحة الأسرة المركزية.

ولكن هذا النظام الذي شيد بإحكام، لم يكتب له البقاء. فهجوم آشور إلى الشرق، ومؤامرات أرزاوا في الغرب، وغزوات المغامرين أمثال مادو وأتاس وميتاس كانت سبباً في فقدان مقاطعات الحدود. وفي الواقع لم تكن هناك أية وسيلة أخرى للمحافظة على الحدود غير الاستمرار في الحرب[2].

1- أ. ر. جرني: الحثيون، ترجمة د. محمد عبد القادر محمد، مراجعة د. فيصل الوائلي، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1997، ص 98-99.

2- المرجع السابق، ص 102-103.

السياسة الخارجية:

لم يُرَ الملوك الحثيون الأوائل خارج حدود بلادهم إلا أعداء. ومن عصر شوبيلوليوما جمع عالم غرب آسيا صفوفه، وأصبحت تحكمه ثلاث قوى عظمى: مصر وبابل وميتاني (المملكة الحورية التي كانت تحكمها طبقة أرستقراطية من أصل هندي - إيراني). وقد حققت هذه القوى درجة من التوازن. وتدل المراسلات الدبلوماسية التي وجدت في تل العمارنة على أنهم كانوا على علاقات طيبة جداً فيما بينهم، إذ كانت بعثات دبلوماسية تروح وتغدو حاملة أفخم الهدايا. كما كان الملوك الثلاثة يخاطبون بعضهم البعض كأخوة، كما كانت تتوطد الصداقة بينهم بعقد زيجات دبلوماسية بانتظام. ولما قضت حملات شو بيلو ليوما على قوة ميتاني، قبلت حاتوشا بعد ذلك بحكم قوتها كإحدى الدول الثلاث الكبرى في المجتمع الدولي القديم.

وعندما يعقد ملكان عظيمان معاهدة بينهما، فإنها كانت تقوم على أسس من المساواة التامة والمصالح المتبادلة. والنموذج الوحيد الباقي لمعاهدة كهذه هو تلك المعاهدة التي عقدت بين حاتوشليش الثالث ورعمسيس الثاني، حوالي 1269ق.م.

والمبدأ الأساسي في مثل هذه المعاهدات هو إنشاء علاقات أخوية. ويتضمن هذا استحالة نشوب حرب بين القوتين وقيام تحالف هجومي ودفاعي. وكانت هذه الموضوعات تتناولها المعاهدات بإسهاب، كما يتعهد الطرفان المتعاقدان أيضاً بأنه في حالة وفاة أحدهما، فإن على الثاني أن يضمن للوارث الشرعي ولاية العرش. وكان هذا الضمان العائلي المتبادل، كما رأينا، شرطاً ذا قيمة جوهرية مماثلة في المعاهدات مع الولاة التابعين، لأنه عندما تكون الأسرة هي الدولة، فالثورة معناها دمار المملكة نفسها، مهما كان مركزها في العالم الدولي.

وهكذا وجدت نسختان من معاهدة رعمسيس - حاتوشليش إحداهما مكتوبة بالهيروغليفية المصرية على جدران كوي (عاصمة الدولة الحثية). وكان يمنح هذا الامتياز (أحياناً) نفسه للولاة التابعين ترضية وتكريماً.

وكانت الشعوب في مناوراتها السياسية تحرص على تجنب الإساءة لجارتها القوية[1].

الحياة الاقتصادية:

هضبة آسيا الصغرى هي إلى حد ما امتداد للسهوب الروسية، ومناخها قاس. وتسبب الرياح العاتية التي تهب من الشمال سقوط الثلوج بكثرة خلال أشهر الشتاء، وبعد ربيع قصير، وإن كان مبهجاً، تلتهب البلاد خلال الصيف من قسوة الشمس، وتفرغ السحب أمطارها عادة على منحدرات طوروس أو على سفوح

1- نفس المرجع، ص 104.

التلال المحاذية للبحر الأسود. وعليه فالهضبة الوسطى هي بلاد سهوبية تكتسحها الرياح، ولا يوجد فيها ماء كاف، ولا مأوى لاستقرار الإنسان إلا في أودية الأنهار فحسب. وقد يسافر المرء ساعات عديدة في السهل المتموج القاحل ثم فجأة يرى وادياً مليئاً بالمياه على مسافة بضع مئات من الأقدام أسفل منه، بينما يوجد وراء ذلك منظر بعيد لتلال مستديرة كتلك التي خلفها. وفي موطن الحثيين في شمال نهر كبادوكس (دليجي ارمك)، تكثر القنوات والأودية وتصير البلاد إلى حد ما أقل كآبة. ويكاد يقع كل فدان على مقربة من قرية، ويبذل في زراعته مجهود كبير. وما يسترعي الأنظار خلو الأراضي المرتفعة من الأشجار، ولا يوجد ما يحتمى به من الرياح الشتوية القارصة.

لا يمكن أن تكون الأحوال مختلفة عن ذلك كثيراً في العصر الحثي. ومصدرنا الرئيس عن طبيعة المجتمع الحثي، هو القانون، الذي يفترض اقتصاداً معتمداً على الزراعة في كل شيء. ولدينا أيضاً قوائم بالحقول وصكوك تملّك مفصلة تحتوي على قوائم العقارات ذات المساحات الكبيرة. وفيما يلي بعض فقرات من القانون تبين الأساس الزراعي للمدينة الحثية:

75- إذا اقترض امرؤ ثوراً وشده إلى نير، أو اقترض حصاناً أو بغلاً أو حماراً ومات أو أكله الذئب، أو ضل، فعليه أن يرد آخر في حالة جيدة. ولكن إذا قال: «نفق بأمر الله» حينئذٍ عليه أن يحلف اليمين.

86- وإذا دخل خنزير إلى مرج أو حقل أو حديقة ثم ضربة صاحب المرج أو الحقل أو الحديقة حتى مات، فعليه أن يعيده إلى صاحبه، ولكن إذا لم يعده يصبح لصاً.

105- إذا أشعل امرؤ النار في (أغصان مقطوعة؟)، وتركها حيث هي، وأمسكت النار بحديقة كرم، فإذا احترق الكرم وشجر التفاح، والرمان، وشجر الكمثرى، فعن كل شجرة واحدة يدفع (ستة) أشقال من الفضة، ويعيد زراعة المزرعة. فإذا كان عبداً يدفع ثلاثة أشقال من الفضة.

151- إذا استأجر امرؤ ثوراً للحرث، فإيجاره في الشهر الواحد شقل واحد من الفضة.

159- إذا أسرج امرؤ ثورين تحت نير واحد، فإيجارهما نصف مكيال من الشعير.

91- إذا سرق امرؤ نحلاً في ثول، كان من المعتاد في الماضي دفع مينا واحد من الفضة (ولكنه) الآن سيدفع خمسة أشقال من الفضة.

وقد عرفنا من هذه المقتبسات أكثر الحيوانات المستأنسة التي يحتفظ بها الحثيون: النعاج، الكباش، الخنازير، الثيران. وكثيراً من أشجار الفواكة التي يزرعونها: التفاح، الكمثرى، الرمان.. الخ، ونرى أنها تتفق في معظمها مع حيوانات وأشجار اليوم.

وكانت المحصولات الغذائية الرئيسة هي الشعير والقمح، اللذين لم يقتصر استعمالها على إنتاج الدقيق والخبز فقط، بل استخدما في صناعة الجعة أيضاً. والمعتقد أن الكرمة كانت أصيلة في الأناضول، ومن المؤكد أنها كانت تزرع بكثرة في العصر الحثي. وزرع الزيتون في العصر الروماني بكثرة في (ملطية) وعلى ساحل بحر مرمرة، ولكنه لم يزدهر في المرتفعات، وربما استخرج الزيت من شجر اللوز. وقد ذكرت أحياناً البازلاء والبقول في النصوص ، وربما كان الكتان يزرع محلياً كما هو الحال اليوم.

وسلاسل جبال الأناضول الضخمة غنية بمعادنها، ولا بد أنها استغلت منذ أقدم العصور. وكان النحاس أهم مواد التصدير عند التجار الآشوريين في كبادوكيا قبل تأسيس مملكة حاتي بقليل. ومن الواضح أن الفضة كانت متوافرة منذ ذلك العصر والعصور التالية لأنها استعملت كعملة.

وتعطي النصوص الحثية والآشورية في كبادوكيا الأسماء الحقيقية للجبال والمدن التي استخرجت منها هذه المعادن، ولكن لم يسعفنا الحظ في التعرف على هذه الأماكن.

وكان النحاس والبرونز معدنان شائعان يستعملان بكثرة في صناعة الأسلحة والأدوات من جميع الأنواع. ولم يوجد إلا بعض أدوات قليلة مصنوعة من الحديد من العصر الحثي، ومع أن السيوف الحديدية، وألواح الكتابة الحديدية، وحتى تماثيل الآلهة، والحيوانات الحديدية قد ذكرت في النصوص الحثية، فقد كانت جميعها أدوات خاصة، فهي إما كانت مكرسة للمعابد، وإما قصد بها أن تكون هدايا ملكية[1].

وواسطة التبادل في المملكة الحثية، بل بالأحرى في جميع أنحاء الشرق الأوسط في ذلك الوقت، كانت الفضة، (أو الرصاص للقيم الصغيرة) في قضبان أو حلقات، تحسب بالوزن، رغم أن طريقة الحساب البدائية على أساس مكيال الشعير كانت توجد أيضاً أحياناً. وكانت وحدة الوزن الشقل، و 60 منها تساوي مينا واحداً، كما في بلاد بابل.

ووجود هذه العملات الفضية واستعمال الأسماء البابلية لوحدات الوزن هو دليل آخر على ما تدين به المدينة الحثية لجاراتها الشرقيات. فقد ذكر في القانون أن التجار الحثيين يرحلون إلى مقاطعات لوويا luwiya، وبالا، ولا يوجد ما يدعو إلى الشك في أنهم كانوا يتاجرون ببضاعتهم عبر الحدود مع الأقطار المجاورة[2].

1- المرجع السابق، ص 108-109.

2- نفس المرجع، ص 113-114.

الملكية:

ترينا القوانين شكلاً لنظام اجتماعي لا ينحصر فيه حق التملك فقط بالمعبد والملك والأشراف، بل إن الأمر لأكثر من هذا، إذ أنه نظام يسمح لكل فرد فيه حق الحصول على ملك خاص به. فيجوز لكل إنسان في هذا المجتمع الحصول على أرض إما عن طريق استصلاح الأراضي الزراعية، أو عن طريق الشراء، حتى وعن طريق تملك قطعة أرض زراعية أهملت فأصبحت بوراً. كما أن لكل فرد حق اقتناء العبيد عن طريق الشراء، وكذلك شراء حيوانات وأدوات مختلفة ومنتجات زراعية. وقد بلغ الأمر درجة أن سمح هذا القانون حتى للعبيد باقتناء مُلك عن طريق الشراء وحتى شراء امرأة حرة. إنها لثورة اجتماعية جارية في طريق التطور: فالعبيد ينتقلون إلى حياة الحرية تدريجياً بمساعدة ما في حوزتهم من ملك خاص، وصاحب الحرفة الذي ما زال نصف مرتبط بالأعمال الزراعية التي يعيش عليها، يشرئب بعنقه إلى الاستقلال بفك نفسه من الأواصر التي تربطه بحياته القروية الزراعية. وعدا عن ذلك نرى بين طبقتي الأحرار والعبيد طبقة انتقالية، هي طبقة نصف الأحرار التي تقابل «مشكينو» في العالم البابلي. وقد كان غالب أفراد هذه الطبقة من الجنود ومقتطعي الأراضي الذين حصلوا بناء على أمر الملك من سكان القرية منزلاً وقطعة أرض مقابل قيامهم بالأعمال الحربية. وإلى جانب هؤلاء جميعاً نجد أولئك من يسمون بأناس «نام - را» المرتبطين بالمنطقة التي يعيشون فيها. ومن الممكن أن يكون هؤلاء من أسرى الحرب، فهجروا إلى هذه المناطق الجديدة ليرتبط مصيرهم بها. كان هذا التركيب الاجتماعي بصورة عامة نظاماً إقطاعياً: من العبيد إلى المحاربين نصف الأحرار، إلى المزارعين وأصحاب الحرف، وكذلك إلى الأحرار التجار المالكين والكهنة وإلى الأشراف الإقطاعيين الكبار وحاملي ألقاب الشرف الملكية. لقد ارتكز هذا النظام على أسلوب إقطاع الأراضي، وهي الطريقة نفسها التي حددت أيضاً صبغة تبعية البلدان الأجنبية للإمبراطورية الحثية. إلا أن هناك دلائل تشير إلى تحول في دولة الإقطاع هذه في طريقها لتصبح دولة الحكام والموظفين. إن هذا الشكل الاجتماعي، الذي توضحه لنا مخلفات الحثيين من وثائق كتابية تعود إلى الألف الثانية قبل الميلاد، يجب أن يكون هو النظام نفسه الذي ساد عند الكاشيين في بلاد بابل وكذلك في الإمبراطورية الحورية - الميتانية أيضاً. لقد ساد هذا الهيكل الاجتماعي عالم الشرق الأدنى، بعد أن تغيرت معالم وجهه على يد نظام فروسية الشعوب الجبلية، وذلك بالدرجة نفسها التي اصطبغت بها أيضاً مجتمعات أوروبا إثر هجرة الشعوب الكبيرة إليها[1].

1- أنطون مورتكات: تاريخ الشرق الأدنى القديم، مرجع سابق، ص 223-224.

الجيش:

تتوقف قوة الإمبراطورية الحثية، كما هو الحال مع غيرها من الممالك المعاصرة، على التقدم الكبير في سلاح جديد، ظهر في كل غرب آسيا بعد عام 1600ق.م بقليل - وهي المركبة الخفيفة التي تجرها الخيول.

ومركبة القتال كما هي لم تكن جديدة، فقد كان للسومريين نوعان من المركبات، إحداهما بعجلتين، والأخرى بأربع عجلات، وكانت العجلات صلدة، ثقيلة، ويبدو أن الحيوانات التي كانت تجرها هي الحمير الوحشية. وكان السومريون يعتمدون دائماً على فيلق المشاة بصورة رئيسة. ومع أن الحصان كان معروفاً، إلا أنه لم يستعمل في أي غرض حربي. وأغلب الظن أن تجار كبادوكيا استعملوا الخيول لجر الأثقال، ولكن مركباتهم كانت لا تزال من النوع السومري القديم ذي العجلات الأربع. والمركبة الخفيفة التي تجرها الخيل والتي عجلاتها ذات برامق ترجع إلى عالم ما بعد سقوط الأموريين. وقد ظهرت في الوقت نفسه في بابل الكاشية وفي مصر في الأسرة الثامنة عشرة، وفي الدولة الحديثة التي أقامتها ميتاني في الشمال، وقد خلقت ثورة في عالم الحرب، فمنذ ذلك الوقت أصبحت السرعة هي العامل الحاسم في المعركة.

ويمدنا أرشيف بوغاز كوي بالسر الذي يوضح هذا التقدم المفاجئ، إذ أنه يحتوي على دراسة مستفيضة مدونة في أربع ألواح عن تدريب الخيل وأقلمتها بمعرفة شخص يدعى كيكولي من ميتاني. وقد تعلم الحثيون معرفة تربية الخيل من العشائر الآرية التي اتجهت نحو الغرب، وعنها تعلمت شعوب غرب آسيا هذا الفن.

وقد صور لنا الجيش الحثي في ذلك الوقت بصورة حية في النقوش المصرية التي تصور معركة قادش الكبيرة. ومن الواضح أن فرقة مركباته كانت لا تفوقها فرقة أخرى. فقد وضع ملك الحثيين في خطوط القتال 1700 جندي من المشاة و 5300 عربة. وتؤمن إعاشة الجيوش من مخازن التموين الملكية ومن الغنائم في الحروب.

وأسلحة الهجوم هي الرمح والقوس، والدرع. وفي النقوش المصرية نرى المشاة الحثيون مجتمعين حول قلعة قادش للدفاع عن الملك ومهماته. كان الملك يقيم الجيوش في المعسكرات أو الحصون وخاصة في عواصم (ثغور) المملكة. وكانت السلطة في هذه المواقع بيد الحكام المدنيين ورجال الدين والعسكريين. وإذا قرر الملك القيام بحملة ألقى الأوامر بالنفير العام، وعندئذٍ يتقدم الأمراء والمدن المقدسة بجيوشهم إلى مراكز الحشد، كما يرسل الأتباع الجنود التي تلزمهم بها المعاهدات المبرمة من قبل. وكان الملك يتقدم الجيوش ويتولى القيادة بنفسه. ويتألف جيش الحثيين من نوعين من المحاربين: محاربي العربات، والمشاة. وقد قوي جيش الحثيين بإدخال العربات.

واستخدم الحثيون الجنود المرتزقة من البدو الرحل أو ممن لا وطن لهم على أن يؤمن لهم الغذاء والكساء. وكانوا يسوقون في أعمال الهجوم الكبرى جنوداً من جميع بلاد آسيا الصغرى.

كان الحثيون يعتبرون الحرب حكماً من الله يلفظ به للفصل في المنازعات الدولية. ويسبق الحرب توجيه إنذار إلى الخصم يذكر فيه الأعمال المرتكبة التي كانت سبباً للحرب والتعويضات المطلوبة، فإذا لم توف المطاليب بدأت الحرب. وقد جرت العادة أن تشاور الآلهة بشأن الحرب. وطرق الحرب على أشكال: كالهجوم المفاجئ الجريء، أو القتال في الأرياف المكشوفة في العراء، أو الاعتصام في المعاقل، أو الجبال وعرة المسالك وصعبة التسلق، أو في المكامن، أو الزحف ليلاً. ويسمح حق الحرب بالنهب والسلب والحريق والسبي. ويقبل الملك الأكبر خضوع الخصم إذا أبدى استعداداً للاعتراف بسلطته. ولم يعرف الحثيون بالفظاعة التي اشتهر بها الأشوريين، فقد كان هؤلاء يجدون لذة خاصة بتعذيب أسراهم وقتلهم[1].

اللغة:

كان الحثيون يكتبون لغتهم بواسطة رموز مسمارية مقتبسة عن الأكاديين، ويرى في النصوص كلمات وتعابير بابلية، ولكن يجب ألا تُقرأ بالبابلية بل بالحثية.

غير أن الكتابة الهيروغليفية التي استخدمها الحثيون حتى القرن الثامن في سورية وآسيا الصغرى، لم تستعمل إلا للغة هندية أوروبية لم تعرف جيداً وما زلنا نجهل اسمها. وكانت تستعمل مئات من الرموز، يعرف منها كائنات بشرية وأجزاء مختلفة من الجسم البشري، كالرأس، والذراع واليدين والرجلين، وعصافير ورؤوس ذوات الأربع، وأشياء أخرى[2].

الآداب:

إن وثائق حاتوشا المنشورة حديثاً لا تسمح بالإحاطة بمجموع العلوم والآداب الحثية. وهذه الآداب تختلف عن سائر آداب الشرق الأدنى الآسيوي باهتمامها بالصفة الأدبية: فكل أثر يحمل اسم مؤلفه سواء أكان نصاً تاريخياً أم كتاباً يبحث في موضوع من الموضوعات.

أما النصوص التاريخية فمتنوعة. من ذلك أن ملوك الإمبراطورية الحديثة سجلوا حوليات ذكروا فيها الحوادث سنة بعد سنة، مثل حوليات الملك مورسيل الثاني. وربما كان هذا الملك قد اخترع هذا النوع التاريخي. وقد تبنى ملوك الآشوريين هذا النموذج من القصة. ولكن الاختلاف يظهر في عرض الحوادث:

1- د. نور الدين حاطوم ورفاقه: موجز تاريخ الحضارة، ص 270-271.

2- نفس المرجع، ص 276.

فالأمراء الحثيون لا يتباهون بالفظاعات ولا ينسبون لأنفسهم كل الصفات المجيدة ويعترفون بفضل معاونيهم.

وأحياناً تظهر القصة التاريخية بشكل آخر، كاللوحة التي يذكر فيها أنيتا كيف وسع مملكته.

وهناك بعض الوثائق التاريخية، التي لم تكتب للحفاظ على ذكرى الحوادث، بل لتفيد كتوطئة لأحكام شرعية جديدة.

ثم إن رسائل ملك حثي مع ملوك آشور وبابل أو مصر، ورسائل الملكة والمدن والأتباع، والتحكيم بين المدن المتنافسة، والاتهامات ضد الأتباع المتمردين، تضيف إلى المعلومات التاريخية معطيات عن العلاقات مع الشعوب الأجنبية ومع الأتباع، وتعكس الأنوار على التنظيم الإقطاعي في الإمبراطورية. وهذا التنظيم يعتمد على تعليمات وأنظمة خاصة لمختلف الموظفين والرعايا، ومثلها للأمراء والإقطاعيين، والرؤساء وخدم المعابد، والعسكريين.

كان الأمراء والإقطاعيون وأتباعهم والموظفون يرتبطون بالملك الأكبر بيمين الولاء. وقد حفظت قوائم لهذه الأيمان، وصلوات الملوك وطقوس الأعياد، ونصوص العبادة تؤلف في مجموعها مصدراً منقطع النظير لدراسة الدين، رغم نقصان الوثائق، وذلك لأنها تتعلق بكل ما يهم شخص الملك.

ونجد في الملاحم والأساطير: جلجامش البطل السومري، والثور السماوي، والآلهة الأسماك، والأخ الصالح والطالح، والصراع ضد الثعبان ايللو حانكا أو البحث عن تيليبينو إله النبات المختفي.

وتتعلق بالدين نصوص تدل على التطير والتفاؤل والتشاؤم، والرقى والتنجيم والتعاويذ ضد السحرة والساحرين.

أما النصوص المتعلقة بالاقتصاد الاجتماعي فقليلة، ويكفي أن تشير إلى كتاب تدريب الخيول، واستعمال المعادن الثمينة ومصر أسرى الحرب.

إن هذه اللوحة التي أتينا على ذكرها، تعطينا أنواع الوثائق المكتشفة خلال حفريات قصر حاتوشا، وقد جهزتنا وحدها بجميع الوثائق الحثية الأصل المكتوبة، ويضاف إلى ذلك بعض النصوص الهيروغليفية التي حررت في عهد الإمبراطورية الحديثة، وهي أقل عدداً من النصوص التي يرجع تاريخها إلى ما بعد تداعي سلطة الحثيين في آسيا الصغرى[1].

1- الأدب الديواني:

تبدأ الوثيقة الرسمية الحثية النموذجية بصيغة موجزة:

1- نفس المرجع، ص 276-278

«هكذا يقول الملك ن، الملك العظيم، ملك حاتي، البطل، ابن ن، الملك العظيم، ملك حاتي، البطل» (مع اختلاف الألقاب والحذف أحياناً، أو الزيادة أحياناً، سلسلة الأنساب). وما يلي ذلك قد يكون إما مرسوماً ملكياً في شأن خاص ذي أهمية، أو حوليات حملات الملك الحربية، أو «معاهدة» تحتوي على يمين الولاء المفروضة على ملك موالٍ. وكل هذه فروع من جذع واحد، يمكن تتبع جذوره إلى أقدم العهود.

وأقدم النصوص الملكية هو مرسوم أنيتاس، الذي نوقشت أصالته فيما سبق. ولكن هذا النص يعتبر شاذاً من حيث الشكل كما في أشياء أخرى كثيرة وتدل القصة التي تشغل معظم اللوح على أنها نقلت من نصب أقيم في بوابة مدينة الملك، وتنتهي بلعنة تنزل على أي أمير أو شرير يأتي في المستقبل ويدمرها أو يغيرها. وإلى هذا المدى ينتمي النص إلى نوع من الأدب كان شائعاً في بلاد بابل وآشور. وهذه حقيقة تؤكد الرأي القائل بأن النص الأصلي للنصب كان مكتوباً باللغة الأكادية. ولم يعرف هذا النوع من النصوص في الأناضول إلا بعد سقوط مملكة حاتوشا، ولذلك تختلف الوثيقة اختلافاً تاماً عن التقليد الحثي الرئيسي.

وما يسمى «الوصية السياسية» لخاتوشيليش هي مثل هام من أمثلة التقارير الحرفية، إذ هي تسجيل لخطبة الملك التي ألقاها عند تعيينه الشاب الصغير مورشيليش ورثياً للعرش، وقد تحدث الملك بحرية وبلا تصنع إلى شعبه، ودون تعمد اصطناع أسلوب أدبي. وفيما يلي بعض المقتطفات التي توضح ما في هذه الخطبة من تلقائية وقوة أسلوب: «تحدث الملك لابارناس[1]. العظيم إلى رجال المجلس المحاربين وأصحاب المقامات العالية قائلاً: انظروا، لقد أصابني المرض. وقد سبق وأعلنت لكم أن لابارناس ابني، هو الذي سيجلس على العرش «أنا، الملك دعوته ابني، واحتضنته، ورفعت مكانته، ورعيته دائماً. ولكن أثبت نفسه شاباً غير جدير بأن يرى: فلم يسكب دمعاً يظهر رحمة، وكان بارداً قاسياً. فاستدعيته، أنا، الملك، إلى مضجعي وقلت: «وبعد؟ فلن يربي أحد (في المستقبل) ابن شقيقته على أنه ابنه بالتبني. فكلمة الملك لم يضعها في قلبه، ولكن وضع كلمة أمه الأفعى، في قلبه». وحسبي هذا فهو لم يعد ابني؟ وحينئذ خارت أمه مثل الثور: «لقد مزقوا إرباً الرحم الذي هو في جسدي وأنا على قيد الحياة، لقد أهلكوه، وأنت ستقتله»؟ ولكن هل أنا أسأت إليه؟

انظروا لقد أعطيت ابني لابارناس بيتاً، لقد أعطيت له (أرضاً زراعية) بوفرة، وأعطيت له أغناماً كثيرة، فليأكل الآن وليشرب. وطالما هو صالح، يستطيع أن يأتي إلى المدينة، ولكن إذا جاء مثيراً للفتن، عندئذ لن يأتي، سيبقى في بيته.

انظروا، إن مورشيليش هو الآن ابني... في مكان الأسد (سيقيم) الله أسداً (آخر). وفي تلك الساعة عندما تنطلق الدعوة إلى السلاح... أنتم، خدمي والقادة من

1- كان هذا، فيما يبدو اسم الملك الأصلي، ثم اتخذ اسم خاتوشيليش فيما بعد أثناء حكمه.

المواطنين، يجب أن تكونوا (جاهزين لمساعدة ابني). فإذا انقضت ثلاث سنوات سيذهب في... وإذا أخذتموه (وهو لا يزال طفلاً) معكم في حملة، فأرجعوه سالماً.

وحتى الآن لم يطع أمري أحد (من أسرتي)، ولكن أنت يا بني مورشيليش، يجب أن تطيعني. حافظ على كلمة أبيك، فإذا حافظت على كلمة أبيك، فستأكل عيشاً، وتشرب ماء. وعندما يتم النضج (بداخلك) فكل مرتين أو ثلاث مرات في اليوم تفعل بنفسك خيراً. وعندما تدركك الشيخوخة فاشرب حتى تشبع؟.. وعندئذ يمكنك أن تضع جانباً كلمة أبيك. الآن، أنتم يا من هم رؤساء خدمي يجب عليكم أيضاً أن تحافظوا على كلماتي. كلمات الملك. أنتم ستأكلون فقط الخبز وتشربون الماء، وهكذا ستبقى حاتوشاش شامخة وستكون بلادي في سلام. ولكن إذا لم تحافظوا على كلمة الملك، فلن تبقوا أحياء بل سوف تهلكون».

وتحت حكم مورشيليش الثاني نجد لأول مرة تاريخ الحكم الملكي مسجلاً تسجيلاً مستقلاً في صورة حوليات. ولكن حتى هنا لم يكن القصص مجرد سرد للحوادث، بل كان لا يزال يدور حول موضوع ديني عادة، فكل السجل الذي يحتوي على ما أحرزه الملك من نجاح، يقدم بخشوع أمام الإله الحامي كقربان شكر. ويمكن توضيح ذلك بالفقرة الآتية من مقدمة حوليات مورشليش:

«عندما جلست أنا، الشمس[1]، نفسي على عرش أبي، وقبل أن أتحرك ضد أي قطر من أعدائي الذين أعلنوا علي الحرب، وجهت همي إلى الاحتفالات المتكررة الخاصة بآلهة شمس أرينا، سيدتي، واحتفلت بها، وإلى آلهة الشمس أرينا، سيدتي، رفعت يدي وقلت الآتي: «إلهة شمس أرينا، سيدتي، الدول المحيطة المعادية التي دعتني طفلاً، واستخفت بي، وحاولت دائماً اغتصاب أقاليمك، يا آلهة الشمس أرينا، سيدتي - انزلي، يا آلهة الشمس أرينا، يا سيدتي، واضربي لي هذه البلاد المعادية «فاستجابت آلهة الشمس أرينا إلى صلاتي وخفت لمساعدتي، وفي مدى عشر سنوات منذ الوقت الذي جلست فيه على عرش أبي، فتحت هذه البلاد المعادية ودمرتها»[2].

ولا يسمح لنا المجال هنا بإعطاء وصف شامل لأنواع الوثائق الرسمية قليلة الأهمية المحفوظة في الأرشيف الحثي. ويرى مما سبق أن الحثيين، لأغراض الحكم وإدارة شؤون الدولة، خلقوا صيغهم وأسلوبهم الأدبي الخاص بهم، والذي يختلف عن تلك التي كانت للشعوب الأخرى المعاصرة.

2- الأسطورة والخرافة والقصة الرومانتيكية:

إن عدد النصوص في هذه الأنواع ليس كبيراً، وهي من ناحية الأسلوب ليست ذات قيمة كبيرة. وقد نسجت القصة في أبسط صور النثر وأقله تنميقاً،

1- لاحظ ها اللقب الجديد، الذي حل محل «أنا الملك» في العصر القديم.

2- آ. ر. حربي: الحثيون، مرجع سابق، ص 205-210.

ولا توجد أية محاولة للنظم. ومع ذلك تتكرر اللمسات التي تحتوي على تفصيلات شديدة الوضوح. ومع أن القصص نفسها بدائية، إلا أن لها أهمية كبيرة.

ويوجد عدد قليل من الأساطير المتعلقة بالمعبودات الحثية، ولكن المؤلفات الأكثر نضجاً من هذا النوع لا تنتمي، إذا تحرينا الدقة، إلى الديانة الحورية. وتوجد خرافات مستندة إلى تاريخ المملكة الحثية القديم، كما توجد روايات حثية للخرافات والملاحم البابلية.

ويبدو مرة أخرى أن القصص القصيرة المتنوعة من أصل حوري. ويمكن تفسير وجود هذه الأساطير والخرافات والقصص القصيرة الأجنبية في المحفوظات الحثية بما كان للحوريين من سيادة سياسية وثقافية في الفترة بين الدولة القديمة والدولة الحديثة. وحتى الخرافات البابلية من المحتمل أنها قد وجدت طريقها إلى المحفوظات عن طريق الحوريين الذين كانوا متشبعين بالتقاليد البابلية.

أ) الخرافة:

لا يوجد من الخرافات الحثية الأصلية إلا واحدة فقط قد وصلت إلينا في حالة لا بأس بها، هي قصة حصار أورشو. والنص مكتوب باللغة الأكادية، ولكنه بدون شك مأخوذ من التراث الحثي. والمكان الذي حدثت فيه القصة يقع خارج مدينة أورشو (في مكان ما بشمال سورية)، التي كان يحاصرها الجيش الحثي بينما كان الملك نفسه يقود المعركة من بلدة لوهوزا نتيبا وكانت أورشو على اتصال، وربما كانت متحالفة مع الدولة الحورية، ومدينة حلب، ومدينة زاروار.

وبعد فقرات غير واضحة نقرأ:

«كسروا المنجنيق المحطم، فتملك الملك الغضب وقال عابس الوجه: «هم يجيئونني دائماً بالأخبار السيئة، ليأخذكم إله الطقس عني في فيضان».

واستطرد الملك قائلاً: «لا تقفوا دون عمل اصنعوا منجنيقاً على الطريقة الجورية وليؤت به ليوضع في مكانه». اصنعوا جبلاً وضعوه أيضاً في مكانه. وانحتوا منجنيقاً كبيراً من جبال هاسو، وليؤت به إلى مكانه. وابدأوا بتكويم التراب. وعندما تنتهون، ليقف كل فرد في موضع. وعليكم فقط أن تدعوا العدو يبدأ الهجوم، عندئذٍ ستفشل خططه».

أما ما حدث بعد ذلك، فقد ضاع بسبب كسر في النص. عندما قدم القائد سانتاس ليقدم تقريراً للمرة الثانية إلى الملك وجده غاضباً من التأخير المستمر:

«لماذا لم تبدأ القتال؟ إنكم تركبون عربات الماء، بل كدتم تتحولون إلى ماء؟... ما كان عليك إلا أن تركع أمامه فقط إذاً لكنت قتلته، أو على الأقل أرعبته. ولكن بدلاً من ذلك تصرفت كامرأة... وهكذا أجابوه: «ثماني مرات (أي في ثماني جبهات) سنحارب. سنقلب خططهم وندمر المدينة» فأجاب الملك «حسناً».

إن بقية النص قد ضاع، وواضح أن القصة تحتوي على سلسلة من الأحداث التي تثير غضب الملك بسبب عدم كفاءة قواده، ولذا يبدو أنها من نوع المرسوم الموضح سابقاً الذي احتوى على قصص لوم وتوبيخ.

أما الخرافات التي من أصل بابلي فممثلة في الرواية الحثية بأجزاء منها فقط، ولا محل هنا لذكر أصولها البابلية كاملة.

وهناك قطع عديدة من ملحمة جلجامش التي لا توجد منها نسخة حثية فقط بل نسخة حورية أيضاً.

ولدينا روايات فيها تصرف لقصص نارام سين الخرافية. وهناك الكتب التي من أصل بابلي مثل الكتب المختصرة في تفسير الفأل بأنواعه المختلفة والطوالع ونماذج من الأكباد والمؤلفات الطبية وجدت أيضاً بكميات كبيرة في برغازكوي[1].

ب) الأسطورة:

تنقسم النصوص الأسطورية المتعلقة بالمعبودات الحثية إلى قسمين، يمكن أن يطلق عليهما: أسطورة ذبح التنين، وأسطورة الإله المفقود. وأسطورة ذبح التنين هي أسطورة نموذجية من أساطير أعياد رأس السنة من النوع الذي تمثله ملحمة الخليقة البابلية. وجوهرها هو كفاح طقسي بين بطل إلهي وخصم يمثل قوى الشر. وتوجد منها روايتان كلتاهما تبدأ بجرأة بتقرير أنه في أولى معاركهما هزم التنين الوبانكاس إله الطقس (وهو البطل). ولذلك استنجد إله الطقس، حسب الرواية الأولى، بكل الآلهة فدبرت الآلهة أناراس خدعه بسيطة. فأعدت حفلة كبيرة مزودة ببراميل من كل نوع من أنواع الشراب. ثم دعت رجلاً يدعى هوباسيياس لمساعدتها. فأجاب هوباسيياس: «إذا كان من الممكن أن أنام معك، فسآتي وأفعل ما تريدين». ولذلك نامت معه. ثم دعت التنين ليخرج من حجرة وليشارك في الطعام والشراب. «وهكذا صعد التنين الوبانكاس مع أطفاله، وأكلوا وشربوا وأفرغوا كل برميل، وأطفأوا عطشهم، ولم يستطيعوا العودة إلى حجرهم. وعلى ذلك أتى هوباسيياس وقيد التنين بجبل، ثم جاء إله الطقس وذبح التنين الوبانكاس، وكانت الآلهة معه»[2].

وبناء على الرواية الثانية للقصة، فإن التنين لم يكتف فقط بهزيمة إله الطقس، ولكن أعجزه باستيلائه على قلبه وعينيه. ولكي يسترجع قلبه وعينيه دبر إله الطقس نفسه حيلة. فقد أنجب ابناً من ابنة رجل فقير. وعندما كبر الابن، اتخذ أبيه التنين عروساً له، وأمره إله الطقس قائلاً: «عندما تدخل بيت عروسك، اطلب منهم قلبي وعيني». ففعل هذا، وأعطيت له الأعضاء المسروقة دون اعتراض. «ثم أحضرها إلى والده، إله الطقس، وأعاد إلى إله الطقس قلبه وعينيه. وعندما عاد

1- المرجع السابق، ص 214-217.
2- نفس المرجع، ص 217-218.

الجسم بذلك إلى حالته السابقة ذهب إلى البحر ليقاتل، وعندما خرجوا لقتاله نجح في هزيمة التنين الوبانكاس». وهنا يتلو هذا أيضاً حادثة غريبة. فقد حدث أن ابن إله الطقس كان موجوداً في بيت التنين في ذاك الوقت، فنادى أباه: «اضربني أنا أيضاً! لا تبق علي!» وعلى ذلك فقد ذبح إله الطقس كلاً من التنين وابنه نفسه[1].

والسمة البدائية في كل من الروايتين واضحة. فالقصتان تنتميان إلى الأدب الشعبي، ولم تكن هناك أية محاولة لتهذيبهما والتسامي بها، سواء من الناحية الأدبية أو الدينية. وقد أوضح النص بجلاء أن هذه الأسطورة كانت تتلى في احتفال بورولين، الذي ربما كان احتفالاً سنوياً بالربيع.

وتصف أسطورة الإله المفقود توقف الحياة على الأرض، بسبب اختفاء إله الطقس، ثم البحث عن الإله وإعادته إلى بيته.

وتوجد داخل هذا الإطار العام روايات عديدة يختلف بعضها عن بعض كبيراً[2].

الديانة:

كان الدين عند الحثيين، شأنه في جميع الحضارات المعاصرة، المقام الأول بين مهام رئيس الدولة ومهام رعاياه. وكان الحثيون يحلون عدداً عظيماً من الآلهة موزعين إلى فئات كثيرة. ويأتي في رأس الآلهة، الآلهة إرينا وزوجها إله العاصمة. وقد حاول إله الشمس في السماء أن ينتزع منها ما كانت عليه من تفوق في عصر الإمبراطورية الحديثة. وكانت هذه الآلهة تشارك مشاركة مباشرة في الأمور العامة، وتساعد الملك الأكبر في حروبه، لأنه كان نائبها وكاهنها الأعظم الذي يطلعها على أعماله. وللآلهة إرينا وزوجها إله العاصمة عدة أولاد، والمعروفان أكثر من غيرهم اثنان وهما إلها العاصفة في زيبالاندا. ونيريق، ويطلب إليهما التوسط لدى أبويهما، وهناك ابن ثالث وهو اينار، ويساعد أباه في الثأر من الثعبان ايلوجانكا، وتيليبينو telepinou إله الخصب.

وكان لهما بنت وهي ميزولا، وتتوسط لدى أبويها لمساعدة الملك مورسيل الثاني في الحروب، وحفيدته وهي الإلهة زنتوهي، وكانت موضع اهتمام جديها ولا يملان من النظر إليها والإعجاب بها في كل حين. ويدخل في دائرة الإله الشمس عرينا الثوران سيري وهورا والجبلان ناني وحزي. وقد أدخل الهنديون الأوروبيون الإله بيروا والإله آسكازيبا وإلهة الطب مامروزيبا وابنتها عاروتا إلهة البحر. هذا بالإضافة إلى آلهة البلاد التابعة. وكان يتم التمييز بين الآلهة من خلال لغة الصلوات الخاصة بكل منها. وكان الكهنة وهيئة المعابد يخضعون لنظام خاص. وتعتبر أخطاؤهم ذنوباً مكبرة وتعاقب بعقوبات مشددة.

1- نفس المرجع، ص 218-219.

2- نفس المرجع، ص 22.

وللآلهة حاجات ورغائب كالبشر؛ فهي بحاجة إلى الغذاء والكساء، وتماثيلها بحاجة إلى النظافة واللباس. ومن هنا يأتي دور الكهنة في المعابد، وكان يتم تمييز الكهان الكبار والكهان الصغار أو الإكليروس الأعلى والإكليروس الأدنى، وعليهم أن يقيموا خارج الحرم المقدس في منازلهم مع نسائهم وأولادهم. واجتماع الرجل بالمرأة حدث أكبر. وهم لا يطهرهم إلا الاغتسال. ولا يفرض العذر على الكهان عند الحثيين، إلا أنه يلاحظ أن بعض الطقوس كان توكل إلى الشبان العاذرين. هذا فصلاً عن أن التشويه الجسدي لا يهيئ للوظائف المقدسة، لأن الآلهة تحب الجمال والنظافة وتشعر بالجوع والعطش، والحاجة إلى اللهو، ويتم ذلك بالخروج من المعبد وتقديم الأضاحي وحضور الألعاب ومشاهد القتال بتقسيم الجيوش إلى فريقين: فريق مع الحثيين بأسلحته البرونزية، وفريق ضدهم بأسلحته القصبية. ومن الطبيعي أن يكون النصر حليفاً لفريق الحثيين، وعندئذ يمسكون بأسير ويقدمونه إلى الآلهة.

وكان الحثيون ملزمين بدفع الضريبة إلى الآلهة. وبهذه الوسيلة تمول المعابد بالموارد من كل نوع، ويكون لها عقارات وأطيان. ولا يستثنى أحد من دفع الضريبة حتى الملك، وتأديتها تكون حسب قواعد موضوعة ومتعارفة، ويدخل فيها الحبوب والطحين والأشربة وصغار الحيوانات وكبارها. وللأفراد أن يقدموا للآلهة ما شاؤوا من قرابين وأضاحٍ، ويدخل في ذلك الحبوب والألبان والفواكة والشحوم والزيوت والعسل، والحيوانات من كل نوع، وحتى الخنزير والكلب وأجناس الطيور. ولتحرز هذه التقدمات رضى الآلهة، يجب أن تكون مقدسة، أي من النوع الممتاز، وكلما كانت الحيوانات جميلة المظهر فتية، كانت أقرب إلى رضى الآلهة[1].

علاقة الآلهة بالناس:

إن علاقة الآلهة بالناس هي علاقة السيد بمولاه. فالإنسان خادم، وعليه أن يبرهن على احترامه لله بالصلاة والزلفى والقربان والحفلات الدينية. وفي المقابل فإن الآلهة تحميه من كل شر. ولكن الإنسان بطبيعته كائن مذنب. و«الإنسانية سيئة» والآلهة مضطرة إلى معاقبة الإنسان عندما لا يؤدي واجباته حيالها، أو يثور على سلطانها.

وليس من الضروري أن يكون عقاب الذنب مباشراً، بل يمكن تأجيله، لأن الآلهة تمهل ولا تهمل وتستطيع أن تعاقب المذنب في أولاده من بعده. وإذا اقترف الملك ذنباً، فلا يتحمل نتائج هذا الذنب وحده، بل عائلته وبلاده برمتها.

وهكذا، فإن أقدار الناس منوطة بالآلهة، إذ إنها هي التي تنظم سير الحوادث، ولكنها لا تظهر نواياها علناً في الأوقات العادية، بل إنها تتوجه إلى الإنسان

1- د. نور الدين حاطوم ورفاقه: موجز تاريخ الحضارة، 273-274.

وتنذره. وفي إمكان هذا الإنسان أن يستعمل بعض الوسائل ليعرف موقف الآلهة منه.

وتستطيع الآلهة أن تظهر إرادتها ونصحها ورغائبها بكل الوسائل، وتتصل بالناس عن طريق الأحلام خاصة، أو أفواه بعضهم، حتى أنها تتحد مؤقتاً بالإنسان، وتؤثر بواسطته. ولكن إظهار الفكر الإلهي لا يحدث عفوياً وفي كل الظروف، ولذا كان الحثيون، كسائر شعوب الشرق القديم الآسيوي، يستعملون وسائل صنعية يستدرون بها عطف الآلهة لإظهار نواياها. وهذه الوسائل الصنعية تلعب في الحياة الدينية دوراً هاماً جداً يفوق الظاهرات العفوية. وهناك العرافون والكهنة والقيام بالمعجزات والخوارق وما إلى ذلك[1].

طقوس دفن الموتى:

اختار الملوك الحثيين لأنفسهم لقب «شمسي» ورمز الشمس المجنحة على حد سواء وفق النموذج المصري، بعد أن أصبحوا يحكمون قسماً لا بأس به من الشرق الأدنى. إلا أن هذا الظن لا يمكنه على الأرجح أن يعكس إلا جزءاً من الحقيقة: إنه منذ منتصف الألف الثانية ق.م وقرص الشمس مع جناحي نسرين كبيرين يشكل عنصراً تصويرياً ذا معنى انتشر في جميع الأقطار من بلاد آشور شرقاً حتى النيل في الغرب. ففي المناطق الحورية وفي بلاد آشور نجد الشمس المجنحة على اتصال وثيق مع الشعار القديم لما يسمى «بشجرة الحياة»، التي تحاط أحياناً على الجانبين بحيوانين أليفين أو شخصين في وضعية الصلاة. أما من ناحية أخرى، فتشكل شجرة الحياة في البدء رمز إله النبات والحياة الذي هو تموز. كما وظلت معاني تموز مستمرة وحية في الملك السومري والبابلي والآشوري على حد سواء، حتى أن تموز نفسه كان أيضاً ملكاً نصف إله. ورأينا في الوقت نفسه كيف أن الأفكار الرئيسة للإيمان بالله في الشرق الأدنى، قد تجسمت بكاملها في شخص مردوخ، وكيف اندمج هناك إله الشمس مع إله العالم السفلي أي مع إله الحياة. ومن جهة أخرى لم تنقطع قط صلة الوصل بين إله الحياة وبين الملك. ولما كان الملك الحثي يضع تبعاً لذلك فوق رمز اسمه رسم شمس مجنحة، فإن هذا المفهوم للملكية في الشرق الأدنى القديم لم يبقَ دون أن يتلقى إيحاءات من طقوس أوزيريس الدينية. أما إذا كان هذا لدى الملوك الحثيين يعود بكامله فقط إلى ظواهر شرقية أو أنه يعود إلى ذاتهم، فلا نستطيع البت في ذلك إلا بصعوبة فائقة. لم يكن الملك الحثي أصلاً - طالما هو على قيد الحياة - إلهاً ولا نصف إله ولا وكيلاً للإله، بل إنه يرتفع ليصبح إلهاً فقط بعد مماته.

يعود هذا المفهوم إلى طقوس عبادة الأجداد، أكثر مما له علاقة بالاعتقاد بإله يموت ويبعث، أو بصورة عامة بالإيمان بعودة الحياة من جديد.

1- نفس المرجع، ص 274-275.

وإذا ما أصبح ملك أو ملكة في بلاد حثي إلهاً أو ألهة، أي إذا مات، فهناك خطوات معينة تتبع في طقوس مراحل الدفن تذكرها لنا الكتابة التالية. إذ يضحى بثور ويصب الخمر من إبريق يُكسر بعد ذلك. ثم يؤرجح فوق المتوفى حيوان من الماعز، لينقل بعدها على عربة إلى الخارج إلى منطقة تنصب فيها خيمة، ويحرق الميت في الليل:

«وإذا ما أصبح اليوم التالي بضوئه تذهب النسوة إلى الـ «اكتوري» (أرض حرق الدفين) ليجمعن العظام ويطفئن النار بعشر من القدور الملأى بالبيرة وبعشر من قدور النبيذ وبعشر من قدور الـ «فالهي». وهناك وعاء الهوبار من الفضة الذي يزن نصف مينة وعشرة شقل مملوء بزيت مصفى، وتجمع النساء العظام في «لبا» فضية ويضعنها في الزيت المصفى في الـ «هوبار» الفضية، ثم ينتشلنها من الزيت المصفى، ويلقين بها على كزا النولي من الكتان، وتحت الكتان توجد قطعة قماش ناعمة.

وبعد أن يفرغن من جمع العظام يدمجنها مع كافة الكتان وكذلك مع قطعة القماش فيضعن الكل على كرسي ذي مسند. أما إذا كان المتوفى امرأة فيضعنها على كرسي ذي ثلاث قوائم (بلا مسند) وحول الاكتوري، حيث يُحرق الميت، يضعن اثنتي عشرة خبزة، ويضعن على الخبز دهناً سائلاً. ولما كانت النار قد أطفئت بالبيرة والنبيذ وأمام الكرسي الذي وضعت عليه العظام، يضع المرء خبز الكوك وخبز الـ (آل) ليكسر إلى أقسام. فالطباخون وخدام المائدة يضعون القدور في المقدمة ثم يسترجعونها أولاً وجميع اللواتي أتين ليجمعن العظام يحصلن على الطعام، ومن ثم يوزع المرء ثلاث مرات شراباً، وكذلك يستسقى المرء ثلاث مرات».

ومن الغرابة حقاً أنه بعد وليمة الدفن هذه يتم صنع صورة على هيئة إنسان من الزبيب والزيتون مضافاً إلى ذلك ثمار وصوف وأشياء أخرى، وأن تكون امرأة عجوز منهمكة بذلك. ويصب بعد ذلك شراب مسكر على الصورة، وتوضع أحجار كريمة ومعادن أخرى في كفة ميزان، كما تقدم أضاحي أخرى يؤتى بعدها بالعظام إلى بيته الحجري؛ حيث تؤخذ من على المقعد وتوضع على فراش يوجد أمامه مصباح.

إن تفاصيل كثيرة لطقوس هذا المأتم للملوك الحثيين تذكرنا بحرق باتروكلوس وهيكتور في الإلياذة. وبغض النظر عن هذه المقارنة، فإن الحرق وطقوس جمع العظام يشيران في حد ذاتهما إلى الفروق الكبيرة التي تميزها عن سائر المعتقدات الأخرى المتعلقة بالعالم الآخر في الشرق الأدنى. وهكذا يصعب

جداً النظر بذلك إلى تلك الصلة بين الملك وإله الشمس أو إله آخر يشبه تموز، على أنها صلة سطحية لا تتعدى الانسجام الصوري مع أشكال عالم الشرق القديم[1].

الأعياد:

كانت لكل إله من آلهة الحثيين أيام خاصة في السنة يحتفل فيها وتقدم على شرفها الأضاحي العظيمة. وهذه الأيام هي أيام الأعياد. ويبدو أن هذه الاحتفالات التي تجري في أيام الأعياد، تعود إلى توالي فصول السنة وأعمال الحقول. سواء أكانت ثابتة أم متحولة، فهي تدخل في التقويم الزراعي.

وأول هذه الأعياد «عيد رأس السنة». ويبدو أن هذا العيد يكون شتاءً، وفيه تقدم القرابين إلى الآلهة عن الملك والشعب. وهذا العيد هو العيد الكبير.

والعيد الثاني هو عيد النباتات ويحتفل به في الربيع عندما تتفتح البراعم ويخضر العشب. وهناك أعياد أخرى كعيد فلاحة الأرض وعيد الحصاد وغيرها. ويجب أن يحتفل بهذه الأعياد، كل في حينه ولا يسمح بتأجيله إلا لعذر قاهر يرجع إلى الدولة، على أن يؤخذ رأي الآلهة بالقبول.

وعدا هذه الأعياد الأساسية كانت هنالك أعياد استثنائية يقررها الملك، ونذكر منها خاصة عيد الحج إلى المعابد والمزارات، الذي يقوم به الملك عند حلول موسم الشتاء في كل عام وترافقه فيه الملكة والأمراء ورجال الحاشية وعدد من الناس لخدمة الآلهة. ويقتضي برنامج هذه الزيارات التنقل كل يوم والتوقف في المدن، وإقامة الاحتفالات الدينية طبقاً لمراسم خاصة لهذا الغرض. كما تعقد المجالس الكبرى التي يحضرها وجهاء البلاد والشعب. وأعظم الاحتفالات الدينية تلك التي كان يترأسها الملك.

الفنون - البناء:

كانت المدن الحثية تبنى على مقربة من الأنهار والجداول في السهول. ولم تكن هذه حال مدينة حاتوشاش عاصمة الإمبراطورية الحثية. إذ لم تكن مدينة سهلية، بل مدينة جبلية بيضوية الشكل، طول محورها الكبير كيلو متران، وتقوم على مرتفعات صخرية في داخلها وفي محيطها. ويبلغ عرض سورها 4.25م. واكتشف فيها ثلاثة أبواب، أحدها في الجنوب الشرقي وتزينه صورة إله، وآخر في الجنوب الغربي وهو باب الأسود، والثالث في الشمال الغربي خالٍ من كل نحت. وتبنى الجدران بالأحجار الكلسية. وفي داخل المدينة يوجد المعبد والقصر والمنازل والمخازن.

إن أجمل منحوتات الحثيين هو الإله المحارب الذي يزين أحد أبواب حاتوشاش، ويرى لابساً بزة ملتصقة بجسمه ومتمنطقاً بحزام علق فيه خنجر

1- أنطون مورتكات: تاريخ الشرق الأدنى القديم، ص 227-230.

معكوف، وممسكاً بيده اليمنى بلطة يضمها إلى صدره، وجمع يده اليسرى مشدود وفي حالة توتر[1].

1- نور الدين حاطوم ورفاقه: موجز تاريخ الحضارة، ص 274-276.